تأملات في الأدب والحياة

غاندى الضئيل

فى كل يوم تقع عيناك على هياكل بشرية مركبة من دم ولحم وعظام . وفى كل يوم تتمخض البطون عن هياكل بشرية . وفى كل يوم تتفتح القبور لتضم أخرى . وغاندى الضئيل من حيث أنه هيكل بشرى لا يخرج عن حكم الطبيعة فى إبراز الهياكل البشرية إلى عالم الحياة ثم ضمها إلى عالم التراب . أما من حيث أنه « روح » فهو فى طبقة الأنبياء حكمة ، وفى منزلة الأبطال شجاعة ، وفى عالم الخالدين أثراً .

غاندى الضئيل ، الهيكل البشرى المركب من قليل من الدم ، ونزر بسيط من اللحم ، وكمية صغيرة من العظام ، يهز أعطاف الامبراطورية التى لاتغيب الشمس عن أملاكها . هذه الذرة البسيطة من الانسانية ، تهز جوانح أكبر امبراطورية عرفتها الانسانية . نعم تهزها من الأعماق وتوقفها موقف المكتوف المكبل بالأغلال أمام عصاة ينفخ غاندى ، العنيف الضعيف ، فى عصيانهم روح السلام .

عصيان مدنى ! يكفى فيه أن تقول لا أريد . ثم تثبت على ارادتك غير مهزوز أمام مدفع أو مهزوم أمام سنان . هى كلمة تعززها إرادة . شيئان أقوى من الأساطيل ، وأعنف من المدافع ، وأفعل من الحديد والنار .

حقا إن الشرق منبع الروحانيات . والظاهر أن هذا الشرق كما استقوى على العالم أجمع بروحانيته مصروفة الى الدين والاعتقاد ، سوف يستقوى عليه بروحانيته مصروفة إلى خير الانسانية .

ولعمرك ماذا يكون غاندى الضئيل اذا كان مجرد هيكل بشرى ، أو صورة مجسمة من دم ولحم وعظام ، ثم فقد قوة الروح ؟ إنه ولا شك يكون لا شيء . يكون كملايين الاشباح التى تمثل على مسرح هذه الحياة مهزلتها ، ثم تمر مر خطرات الوهم أو فلتات الخيال . ولكن هى الروح اذا تجردت عن التعلق بالماديات تسامت إلى أى شيء ؟ أخشى أن أقول إلى مقام الالوهية .

***

أنا حر

للشاعر الآلهى « طاغور » رواية أسماها الناسك - The Ascetic - بدأها بهذه الجملة : « أنا حر » .

وهذه الجملة ، المكونة من مبتدأ وخبر ، أو من كلمتين اثنتين لا تتجاوز حروفهما الخمسة عداً ، تقوم عندى مقام مأساة كاملة . هل فى هذه الانسانية من يجد فى نفسه من الصفات ما يخول له أن يقول « أنا حر » ؟ هل فى مستطاع كائن بشرى بالغاً ما بلغ من الاستقلال فى الرأى أن يدعى أنه وصل الى هذا المقام الأسمى ، مقام حرية الضمير ، فيقول عن عقيدة « أنا حر » ؟ . . . ولكن طاغوراً قالها !! ولئن لم يكن من حق طاغور أن يقولها لأنه وصل إلى أعلى قنة من هـــذا المقام الأسنى ، فانه ولا شك أجدر انسان بأن يقولها فى هذا الزمان .

اعتقد ان عظمة الامم ، بل عظمة الانسانية ، إنما تقوم على نفوس كبار تشعر بالحرية وتقدس ما فيها من معانى الجمال . وكلما كثر فى أمة أولئك الرجال الذين هم من هذا الطراز ، على تباين فى المنزلة والمرتبة ، كان مركزها من الحضارة أثبت وسنداتها الاجتماعية أقوى وأركز .

أنا حر ! ولكن فى أى شىء ؟ فى كل شىء . فى رأيى . فى عقيدتى . فى ضميرى . فى أخلاقى . فى تصرفى . فى قولى . فى عملى . . أنا حر فى كل شىء . ولكن عند الحد الذى أنفع فيه الانسانية . بل إنك اذا قلت « انى مقيد بجمال الحرية » — كنت كأنك تقول « أنا حر » . هذا ما يفهم من معنى كلمة طاغور الخالدة .

ولا يكفى أن تقول « أنا حر » لتكون حراً بالفعل . كما لا يكفى أن تقول أنا ملك ، لتكون ملكا . أو تقول أنا شيطان ، لتكون شيطاناً . بل يجب أن تكون حراً بالفعل ليكون من حقك أن تقول « أنا حر »

ومن أجل أن تبلغ إلى هذه الدرجة العليا يجب أن تعتقد أنك تحررت من السلطات بأنواعها . سلطة العقيدة يوهمك بها شخص ، أو يفرضها عليك تقليـــد موروث . وسلطة القانون بأن لا تجعل للقانون من سلطة عليك . وسلطة الشهوات بأن لا تجعل للشهوات قوة تملكك بها . وسلطة الشرائع . بأن لا تجعـــل للشرائع من سلطان على ضميرك بأن تبتعد عن الخطيئات . وسلطة الخلق بأن لا تفعل فى سرك ما تتنكبه فى علنك . وسلطة الضمير بأن لا تأتى من فعل يؤنبك عليه الضمير .

وعلى الجملة فمن أجل أن تكون حراً ، يجب أن تتقيد بجمال الحرية .

رأى فى الديموقراطية

للكاتب ج . ه . ولز الاديب الانجليزى المعروف خطبة القاها فى السوربون بفرنسا طبعها فيما بعد تحت عنوان « الديمقراطية فى الميزان » أعجبت منها بهذه الجمل .

« يخيل إلى أننا جميعاً متفقون على أن معنى الديمقراطية فى العصر الحديث قد عبر عنه بالتقريرات الآتية .

« كل المخلوقات الآدمية ذات قيمة واحدة فى نظر الله

أو من ناحيه القانون

« كل الناس متساوون أمام القانون

أو عملياً

« إن نقود شخص ما مساوية فى القيمة للنقود التى يملكها آخر

« وهذا يتضمن نقض كل الفروق القائمة بين الطبقات والامتيازات ، وكل ضروب الاخضاع . إنها إما نزعة الى التسوية ، وإما نزعة الى الثورة . وهذه التقريرات تتضمن فى الوقت ذاته تناقضا ، يظهر جلياً فى أن التسوية بين كل الشخصيات من حيث الأهمية والقيمة ، تجنح دائماً إلى تقييد بعض الافراد عن أن يبلغوا درجات أعلى ، وبوقوف كل الناس فى مستوى واحد ، يخضع كل الافراد للجماهير .

ooo

التعليم ونتائجه

كل نظرية من النظريات التى لا تصقلها التجربة ، لتظهر مقدار ما فيها من الخطأ والصواب لايمكن أن يوثق بها الثقة الكاملة ، مهما كان فيها من مظاهر الاقناع . ومن هذه النظريات قول العلامة هنرى جيمس الكاتب الاجتماعى المعروف اذ يقول :

« إن تعليم شعوب يضرب عليها عيش الفقر والعوز ، مع الطمع فى بقائها بعيدة عن الثورات المهدمة والغورات الفجائية المحطمة ، أمر بمثابة بناء هرم يرتكز فى الأرض على قمته لاعلى قاعدته . »

والظاهر أن هذه النظرية صحيحة من وجوه كثيرة . غير أنى لا أتخيل أن تطبيقها يؤدى إلى النتائج التى تخيلها هذا الكاتب الكبير . ففى أوائل القرن الثامن عشر ، كان من الممكن أن يتخيل كل مفكر نتائج هذه النظرية بالغة أقصى ما يمكن من سوء العواقب إذا هو أراد تطبيقها نظرياً على انجلترا مثلا ، وكان الفقر هنالك قصى الغور فى التأثير على

الجماهير . كما كان الجهل بالغاً أقصى مبالغه . والآن وقد تعلم الشعب الانجليزى أرقى تعليم لم يجنح إلى الثورات والفورات الفجائية التى يمكن أن تؤدى اليها نظرية هنرى جيمس . ونرى من جهة أخرى أن أقل الشعوب الأوروبية تعلما وأحطها إدراكا ، وفى الوقت ذاته أوسعها أرضا وأرزاقا ، وهو الشعب الروسى ، كان أقرب إلى هذه الثورات من كل الشعوب التى بلغت أرقى مبالغ التعليم كهولاندا وسويسرا والسويد والنرويج وانجلترا ، على ضيق أرضها وشدة التنافس فيها بين الأفراد .

أما الحقيقة التى يؤيدها العلم البيولوجى فتدل على أنه فى كل الزمر الاجتماعية ، والزمر الاجتماعية البشرية على الاخص ، نزعة الى ما يمكن أن تدعوه « التعديل » تجبرها على التوفيق بين خيالياتها وبين حاجات الجماعة . فان أكبر الآثار التى نراها بارزة فى صور الاصلاح الاجتماعى ، لم تكن لدى الواقع نتيجة جهد قامت به زمرة من الزمر أو بضعة أفراد مصلحين ، بل كان نتيجة شعور استوى فى الاحساس به الاكثريات والاقليات بضرورة الاصلاح . فان الغاء الرقيق مثلا لم يكن نتيجة جهد قام به الأرقاء ، ولا نتيجة ثورات أشعلوا نارها ضد مسترقيهم . بل كان نتيجة شعور أحس معه المسترقون أن تحرير عبيدهم أعود بالخير على الطرفين . وهذه النزعة الاجتماعية يمكن الانتفاع بها فى الحصول على نظام يسد مطامع المتعلمين فى الحياة بما لا يدعوهم إلى الشعور بضرورة الثورة . ذلك لأن الظلم لا يحدث الثورات ، ولكن يحدثها الشعور به

فيلوبونس